الإنسان فى الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

الإنسان فى الإسلام

لقد حار الفلاسفة فى وصف الإنسان ، فقالوا فى تعريفه : إنه حيوان ناطق ، أو حيوان صانع ، أو حيوان مدنى ، أو حيوان ميتافيزيقى ، أو حيوان إلهى ، أو حيوان مُرَيَّض ، أو حيوان ضاحك ...إلخ . وذهب فريق منهم إلى الجانب القاتم فى الإنسان ، فعرفوه بأنه : ذئب لأخيه الإنسان ، أو حيوان مفترس ، أو بأنه الحيوان الوحيد الذى يُحْدِث للآخرين آلاماً ، لا لغاية إلا لهذا الإيلام بعينه ، أو إنه ذرة تافهة تائهة فى أرجاء كون هائل صامت ، أو إنه نزوة لا طائل تحتها ، أو إنه فى قلب الحياة كالضلال الأكبر والمرض العضال ، والمأزق الذى بلغته الحياة فى سبيل تطورها . بل إن الوجوديين ذهبوا إلى أبعد من ذلك فى تصوير " عبث " الموجود البشرى، فيقول زعيمهم "سارتر" : إن الإنسان هو الموجود الذى يشعر بأنه قد وجد حزافاً ، أعنى أنه يدرك ذاته بوصفه عبثاً لا طائل تحته ، ويُعَرَّف دائماً بأنه زائد عن الحاجة " de trop " .

فإذا ما فتحنا كتب رجال الدين ، وآباء الكنيسة ، وبسكال ، وبوسويه ، وماسيون ، وغيرهم من الناطقين باسم التقليد المسيحى ، فسوف نجد أن الإنسان – فى نظر هؤلاء جميعاً – مخلوق وضيع ، لا يملك أية طهارة ، ولا يتمتع بأية فضيلة ، ولا تنطوى نفسه على أية براءة . إنه عند أصحاب " نظرية الخطيئة الأولى " مخلوق ساقط ، بهيمى ، تعميه شهوته الدنيئة ، بحيث إنه لولا خوفه من نار جهنم ، أو لولا احترامه لسلطة المجتمع ، لأقدم على ارتكاب أدنى الموبقات ، ولما تورع عن إتيان أحط الجرائم .

تحدث الإسلام عن الإنسان من بدء الخليقة ، فبين أن الله خلق الإنسان الأول (آدم " من طين لازب ، فقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات : ١١] ، كما ذكر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون ،

فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحجر : ٢٨] ، فنلاحظ أنه ذكر ثلاث مواد ، خلق الله منها الإنسان :

١- الطين اللازب .

٢- الصلصال .

٣- الحمأ المسنون ،

فالطين هو التراب المختلط بالماء ، فإذا مكث مدة من الزمن صار أسود منتناً ، وهو الصلصال . والمسنون : المُصَوَّر على صورة ومثال . فهل هى مراحل لِتَكَوُّن خلق آدم من التراب الذى لا قيمة له فى عالم العناصر الأرضية ؟ ربما ! وقد دفع هذا بعض الماديين إلى القول بأن الإنسان معدوم القيمة ،فقال : إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلاً ، وحللنا تكوينه وجدنا بدنه يحتوى على المواد الآتية :

قدر من الدهن يكفى لصنع سبع قطع من الصابون ، وقدر من الكربون لصنع سبعة أقلام رصاص ، وقدر من الفسفور يكفى لصنع مائة وعشرين عود ثقاب ، وقدر من ملح المغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات ، وقدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه ، وقدر من الجير يكفى لتبييض بيت للدجاج ، وقدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره ، وقدر من الماء يملأ برميلاً سعته عشرة جالونات .

وهذه المواد تُشْتَرَى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى بضعة جنيهات . فهذه قيمة الإنسان فى نظر هذا الفريق من الماديين : مجموعة من العناصر المادية ، رُكِّبَت بطريق معينة ، لتؤدى وظائف مختلفة ، إلا أنها متناسقة ومنسجمة ، فإذا اختل هذا التناسق ، واضطربت عوامل الانسجام ، تفككت هذه المكونات وتلاشت ، فأصبحت شيئاً آخر ، وهذا ما يعبر عنه بالموت .

أليس فى هذا التصور ما يدعو الإنسان إلى احتقار نفسه ، والتهوين من شأنه ، والنظر إلى وجوده على أنه شيء تافه ، لا يستحق الاهتمام ، ولا يستدعى التفكير فيه ، فهو لا يختلف فى تكوينه عن كل ما يحيط به :

تأثر وتأثير بين المواد المختلفة ، على شكل تفاعلات كيميائية ، حتى فى أخص الخصائص التى تميز بها عن غيره ، ألا وهى قوة الإدراك والتفكير ؟؟

ودورة ديناميكية تتوقف عندما يحدث عطب فى هذه التفاعلات الكيميائية ، أو اضطراب فى عملية التأثير بين وظائفها المختلفة ؟؟

إن مما لاشك فيه أن هذه النظرة إلى الإنسان تجعله يشعر بأنه لاشيء يُذْكَر بالنسبة للكائنات الأخرى ، فما دام التركيب واحداً والعناصر متماثلة ، وليس هناك ما يميزه عن غيره ، فهو كالحشرة ، أو هو كالحيوان فى مادته وتركيبه . وقد عبر أحد الماديين عن عدم الفرق بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى ، فقال : " هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ! نحن لا نساوى أكثر من أنفسنا ، وكذلك الحشرات ، والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط ، وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان ، لا يفوق كثيراً فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان .

ماذا نفقد أو يفقد الكون ، أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا ؟

يجرد هذا التصور الإنسان من أخص خصائصه ، ويسلبه ما ميزه الله وفضله به على سائر مخلوقاته ، ألا وهى النفخة الإلهية التى أودعها الله هذا الجسم ، فحُوِّلَ إلى كائن آخر يمتاز فى خصائصه ، وميوله ونزعاته ، وتفكيره عن كل ما عداه من مخلوقات .

يقو ل الله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص : ٧٢] ، تلك النفخة التى ارتفعت به عن الأرض ، وحلقت به فى السماء ، مترفعة به على سائر المخلوقات التى خلقها الله على هذه الأرض ، فهو نوع آخر مميَّز ومُفَضَّل عليها ، ولهذا فإن له السيطرة عليها ، وهى مسخرة له ينتفع بها فى سائر شئون حياته . وهذا التصور يشعر الإنسان بالعزة والكرامة ، ويضفى عليه هالة من الإجلال والرفعة مما يجعله يحس بفاعليته فيمن حوله وما حوله ، فينطلق لتعمير الكون ليحقق بذلك قول الله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾ ﴾ [هود : ٦١] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ

﴿١٦٥﴾ [الأنعام : ١٦٥] . فشعور الإنسان بأنه مستخلف يختلف كثيراً عن شعوره بأنه كائن مثل حشرات الأرض وهوامها .

و لم تكن نظرة الماديين إلى الإنسان واحدة ، فبينهم اختلاف فى تصور العناصر التى يتكون منها الإنسان ، وفى تفسير وجوده ، فبينما يرى البعض بأنه كتلة من اللحم والدم والعظام ...و...و...إلخ كما بيناه سابقاً ، يذهب آخرون بأن وجوده على هذه الهيئة إنما هو حلقة فى سلسة تطور الكائنات الحية ، فالإنسان عندهم أخو الحشرات ، غير أن تطوره خطا خطوات أسرع ، فتحول إلى هذه الصورة ، ومن أشهر ما قيل فى هذا المجال : رأى " داروين " الذى يتلخص فى أن الإنسان ككائن حى مرَّ بمراحل فى سلم تطوره ، وآخر مرحلة انتقل منها إلى هيئته الحالية هى مرحلة : القرد ، ولذا شاع بين الناس أن الإنسان أصله قرد .

لا تختلف هذه النظرة إلى الإنسان عن سابقتها ، فكلاهما قد هبط به إلى أسفل ، وجرده مما يتميز به عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، فهو وإن اعترف بتطوره ، إلا أن مفهوم هذا التطور عنده يتعلق بالعناصر المادية ، فلا يتطرق إلى ما وراء المادة من روح ونفس ، وسمو وشفافية ، بل لا يخرج عندهم عن كونه حيواناً متطوراً ، يرقى من طور إلى آخر حتى بلغ ما هو عليه الآن ، فالحيوانية أصله ، والمادية سُدَّتُه ، فلم يتكون إلا من العناصر الهابطة ، غير أنها ارتقت بعض الشيء عن مثيلاتها.

ألا يُعْتَبر هذا من أكثر التصورات سوءاً على نفس الإنسان ؟

هل يوجد ما هو أسوأ من هذه النظرة على حياته ؟

إذ يرى نفسه مخلوقاً هابطاً ، لا يختلف عن الحيوان فى شيء ، فلا يتميز عنه بميزة ترفع قدره ، وتُعْلِى مكانته بين المخلوقات ، فهو يشعر فى ظل هذه النظرة بالانحدار والتلوث والإسفاف ، وبناءً عليه ، فهو لا يستنكف من التلوث ، لأنه أصله ، ولا يخزى من الهبوط فى وديان القذارة والأوحال ، فهو منها ، وليس فيه ما يرفعه عنها ، أو يدفعه إلى التخلص منها ، فالحياة النظيفة غريبة عنه ، وليس بينه وبين المعانى السامية أدنى اتصال ، فهو مجرد عن كل ما يدفعه إلى الدنو منها ، أو يربى فيه خصائص الركون إليها والبحث عنها ، والتحلى بها . فهو

مادة خالصة ، ليس فيه ما يهذب هذه المادة ويخلصها من الشوائب ، ويرتفع بها إلى عالم المعانى ، ويسبح بها فى آفاق الحق الأعلى ، فيستعلى على الشهوات ويبتعد عن المطامع المادية تقرباً إليه ومبتغياً رضاه .

فنظرة الماديين إلى الإنسان هى احتقار له ، وتهوين من شأنه ، وهبوط به إلى درجات الحيوانية ، أما الإسلام فقد نظر إلى الإنسان على أنه — وإن كان مخلوقاً من الطين والصلصال والحمأ المسنون — إلا أنه مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر ملائكته بأن يسجدوا له تكريماً وإشعاراً له بتميزه عن سائر خلقه ، وفى ذلك ما يدفعه إلى ممارسة كل ما من شأنه أن يرتفع به عن الجانب المادى فيه ، ويحلق به فى سماء المعانى بعيداً عن الماديات وأقذارها ، ومُتَجَنِّباً كل ما من شأنه أن يهبط به إلى أسفل ، حيث التلوث والإسفاف والانحدار إلى مدارك لا تليق به كمخلوق فضله الله على سائر المخلوقات بأن نفخ فيه من روحه ، وكرَّمه بسجود الملائكة له ، وميزه بالعلم والإرادة وجعله خليفته فى الأرض ، ومحور النشاط الإرادى فى الكون ، وسخر له ما فى السموات والأرض ، فكل ما فى الكون مسخر له ، ولم يجعله مسخَّراً لشيء أبداً ، وإنما طلب منه العبادة له وحده .

إن مكانة الإنسان المادية بين المخلوقات لا تكاد تُذْكَر ، فهو من حيث حجمه وتكوينه المادى شيء ضئيل جدًّا بالنسبة للكون ، وكذلك بالنسبة لمخلوقات أخرى كثيرة تعيش على سطح هذه الأرض ، ولكنه من حيث ما أودع الله فيه من روح وقوة إدراك ، وإرادة وبصيرة شيئاً كبيراً ، إذ اكتسب بهذه الصفات غير المادية مكانة سامية ، فشعر بالعلو والسمو على غيره من الكائنات ، ودفعه هذا الشعور إلى بذل كل ما لديه من طاقات ليظل مرتفعاً فى سماء الفضيلة والكرامة .

تكريم الله الإنسان : أكد الله فى كثير من آيات القرآن الكريم على أنه كَرَّم الإنسان وفَضَّله على سائر المخلوقات كلها ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ
﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن : ٣- ٤] ، وقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين : ٤] ،
بل إن تصوير القرآن الكريم لإخبار الله الملائكة بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، وإظهارهم تخوفهم من أن هذا المخلوق سيفسد فى الأرض ، ثم بيان الله لهم بالدليل الواضح على أنه صاحب عقل ودراية وإدراك لما حوله ، لَبيان واضح للإنسان عن مدى تفوقه على مخلوقات الله ، وفضله عليهم ، إذ أن العقل المُدْرِك فيه قد رفعه من حطيط المادية إلى سماء الإدراك والفهم ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٣]

كذلك كان لأمر الله الملائكة بالسجود له — وهم عباد الله المقربون ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، وهم الذين يسبحون الله آناء الليل وأطراف النهار ، فلا يوجد فى مخلوقات الله من هم أقرب إليه منهم — إعلان على أن الإنسان قد احتل مكانة سامية لدى رب العالمين ﷻ ، وأى مكانة تضاهى الاحتفاء به فى العوالم الروحية . وجاء هذا الاحتفاء فى صورة أمر الله الملائكة بأن تسجد تحية له ، فهى تحية إجلال وإكبار ممن جعلهم الله أقرب خلقه إليه ، يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

رُوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص : ٧١-٧٤] .

لم يفهم إبليس معنى السجود للإنسان ، و لم يدرك سببه ، ولذلك علق عدم السجود على مظهر مادى بحت ، عندما سأله الله عن عدم السجود ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص:٧٥-٧٦]

عصى إبليس أمر ربه ، فلم يؤد التحية لهذا المخلوق الجديد ، لأن الحقد والحسد من تكريم الله للإنسان ، ورفعه فوق درجة الملائكة دفعاه إلى الاستكبار ، فأبى الخضوع لأمر الله ، فكان من الكافرين .

فماذا كانت عاقبة هذا التمرد ؟

وماذا كان مصير من لم يعترف بفضل الإنسان ، فلم يقم بتبجيله واحترامه ؟

ذكر القرآن الكريم أنه عوقب عقاباً أليماً ، إذ طرده الله من رحمته ولعنه ، فصار طريداً فى كل مكان ، وملعوناً على كل لسان عبر الدهور والأزمان ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص : ٧٧ – ٧٨] ، ومن يلعنه الله فلن يجد له نصيراً، ومن يطرده الله من رحمته فلن يحس بلحظة سعادة ، بل تظل حياته شقاءً وبؤساً وألماً يعصر روحه إلى أن تقوم الساعة ، ويومها يُلْقَى فى جهنم وبئس المصير .

وأى ذنب فعله إبليس لينال كل هذا العذاب فى الدنيا والآخرة ؟

ليس إلا رفضه تكريم الإنسان كما أمره ربه ، وهذا يبين فضل الإنسان عند رب الكون كله ، ودرجته عند مبدع الأفلاك وما عليها ، وخالق السموات وما بينها .

فإذا قارن المرء بين نظرة الماديين إلى الإنسان ، حيث يعتبرونه مجرد حيوان يأكل ويشرب ، ويشبع رغباته وغرائزه ، دون أدنى شعور بما يدفعه إلى التفوق والارتقاء إلى أعلى ، وبين تكريم

الله له ، فإنه يشعر بمدى الإهانة و الاحتقار من جانب الماديين ، والذل والهوان لو دار فى فلكهم ، واتبع أهواءهم ، وانغمس فى شهواتهم ، بينما الإسلام يغرس فيه الثقة بالنفس ، والشعور بالذات . بل إنه يتيه فى رحاب الإيمان فخراً وعزة ، لأنه ينتسب إلى الله ، ويرتبط به ، لأنه خلقه بيديه ، ويقترب منه لأنه فَضَّلَه وكَرَّمَه على سائر خلقه ، وليس هذا الإحساس بِهَيِّن فى عالم الإنسان ، فهو يؤثر على شعوره فيدفعه إلى الترفع عن الدنايا ، لأنها لا تليق بمركزه ، وبذلك يَتَقَوَّم سلوكه ، فيلتزم طريق الخير التى تعود عليه بالسعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة .

ولا ينقص من هذا التكريم وقوع آدم فى الخطيئة الأولى التى تحدث القرآن الكريم عنها فى قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه : ١٢٠ – ١٢١] ، لأن الله غفر له هذه الخطيئة ، فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه : ١٢٢] ، ومعنى هذا أن الخطيئة الأولى لم يتحملها أحد – فى نظر الإسلام – غير آدم وزوجته ، وأن الله عفا عنهما ، عندما سألا ربهما أن يتوب عليهما ، فالمبدأ الإسلامى ألا تزر وازرة وزر أخرى ، كما نص على ذلك فى القرآن الكريم فى الآية رقم ١٨ من السورة رقم ٣٥، فلم يتحمل أبناء آدم وزر هذه الخطيئة ، لأنهم لم يرتكبوها ، وهذا هو مفهوم العدل التى تنادى به الشرائع كلها ، إلهية كانت أم بشرية ، كما يرتضيها العقل وتقبلها الأفهام .